اضطجعت فتاة على سريرها المتثائب في وجه النهار الفتي، واصغت وهي مغمضة العينين الى الغناء المنبعث من مذياع الجيران ... كان ثمة امرأة تغني .. صوتها مدينة خضراء تسافر اليها شمس ناعمة الضوء وسماء زرقاء وعصافير تبحث عن ربيع لا يرحل واصداء اجراس عذبة الايقاع تقرع عبر سهوب شديدة الحزن.. وكان ذلك الصوت يتصاعد مثقلا بالنشوة والحنان والوداعة ، تظلله موسيقى شبيهة بطيور رمادية محمومة فوق حقل اصفر ، وبعث الغناء في اعماق الفتاة فرحا باهرا غريبا يحمل في جوفه حزنا قد يتفتح ورده الاسود في اية لحظة . وكان جسدها المسترخي فوق أغطية السرير ناضجا كنبيذ هرم .. نسي يوم ولادته .. كان جسدها آنئذ بلا رجل ... بحرا نائمة امواجه السمراء.. وها قد بدأ ببزغ اساه الملفع ببكاء صامت ذليل .. المتلهف الى ضجيج القوارب وضربات المجاذيف الرتيبة الخاضعة لسواعد بحارة يملكون اجسادا مغطاة بطبقة من الشعر الخشن ومبللة بعطور ليست أرضية .. ولا يملكون وجوها .

واندفع بغتة الى مخيلة الفتاة وجه امها ، وخيل اليها انها تسمع صوتها الحاد يردد كعادته :

ـ الرجال كلهم يعبدون المرأة بذل عندما يشمون رائحتها ، ولكنهم يبتعدون عنها بقرف لحظة تنطفيء شهوتهم .

وتذكرت الفتاة ما روته لها مرة جارة عجوز عن امرأة اختطفها سبعة رجال ، ولم تفلت من قبضتهم الا بعد عدة ليال ، وكانت النظرة الغامضة المطلة من عيني الجارة العجوز أثناء حديثها تجعل الفتاة تميل الى الاعتقاد بأن المرأة المختطفة لم تكن الا الجارة العجوز في أيام صباها .

ورددت الفتاة بلا صوت : سبعة رجال وامرأة واحدة فقط ... سبعة رجال ؟

واحست الفتاة بأن الرجال السبعة قد اقتحموا غرفتها .. انهم حولها . أيديهم تلمس لحمها بجوع .. انهم يلهثون بصوت مسموع وتفوح منهم رائحة حيوانات امتزج عرقها بأمطار مطلع الربيع .

وقال أحدهم : ستكون اكثر جمالا وهي عارية .

فامتدت الاصابع في الحال الى ثوبها ومزقته ، ولم تشعر الفتاة بأي خجل انما غمرها فيض من العذوبة الممتزجة بحنين الى قسوة حارة ... وقالت لنفسها : اذن انا الان عارية .. والرجال السبعة حول سريري .

قال الرجل الاول :

ـ وجهها هديل حمامة ... انها اجمل من امي .

قال الرجل الثاني :

ـ ما اجملها ... لم اقترب من امرأة منذ ولادتي

قال الرجل الثالث :

ـ لحمها ناعم اسمر دافيء

قال الرجل الرابع :

ـ انا متعب .. ليونة نهديها تخيفني

قال الرجل الخامس :

ـ فمها قرنفل مرتجف .

قال الرجل السادس :

ـ سأهلك اذا لم اتساقط مطرا فوق غابة العطر الضائعة

وهتف الرجل السابع بضراعة يائسة :

ـ آه يا آلهتي ..

وهمست الفتاة بارتعاش : أوه اوه

وتعالى من خارج الغرفة صوت امها يناديها بالحاح ، فتلاشى السبعة رجال ، وفتحت الفتاة عينيها وقالت لنفسها :

ـ ساكون سعيدة لو كانت امي ميتة.

وفي تلك اللحظة بالذات كانت شمس الظهيرة متسمرة فوق طريق يطأ اسفلتها رجال رؤوسهم منكسة .. يتبعون بتثاقل تابوتا ... كان فيما مضى شجرة تحبها العصافير ويلوذ بظلالها المتعبون ، ولكنها تحولت الان الى علبة كبيرة من الخشب يرقد في داخلها لحم بارد اصفر .. وقد كان هو الاخر قبل يوم واحد فقط رجلا له بيته وغده واحلامه وابتساماته .

لقد تعبت .

هل المقبرة بعيدة ؟

ماذا سنفعل بعد دفن الميت ؟

أنا جائع .. سنتغدى .

وفي المقبرة كان حفار القبور قد أعد كل شيء ، ووقف ينتظر وهو يخفي ابتسامة خبيثة خلف قناع من الوجوم الذي ازداد قتامة لحظة اقتربت منه الجنازة .

وضع التابوت على الارض بالقرب من حفرة عميقة . رفع غطاء التابوت وامتدت الايدي وحملت الجثة الملفوفة بقماش ابيض ربط عند نهاية القدمين والرأس . ولولت امرأة . بكى رجل بصمت . اهرب يا فرح . اغمضوا عيونكم يا اطفال . أين انت يا موت ؟ ان عثرت عليك فسوف اذبحك الف مرة في اللحظة العابرة بسرعة . ليل الحفرة ابتلع الجثة . سد فم الحفرة بحجر كبير. اهيل فوقه كوم من التراب. وبعد دقائق تفرق الجميع واقفرت المقبرة ولم يبق سوى غراب قبع هنيهة فوق رأس شجرة ثم ما لبث ان حلق عبر الفضاء الازرق مرفرفا بجناحيه الاسودين .

وتوقف شابان عن المسير بالقرب من سور المقبرة ، وقال الشاب ذو القامة الهزيلة المديدة الشبيهة بشجرة يابسة :

ـ لقد تضايقت للغاية من رؤية جثة الميت .

فاجابه الشاب الثاني وكان بدينا قصيرا تختفي عيناه وراء نظارة سوداء .

ـ انا تضايقت ايضا كأن جثتي هي التي دفنت ... ولكن الموت ملجأ مريح للرجال الذين هرموا .

ـ نحن ايضا سنهرم ... لن نحتفظ بشبابنا .

ـ لماذا تتكلم هكذا ؟

ـ أني أكره النهار فالضوء الفاضح والضجة والشمس القاسية والازدحام .. كل ذلك يجعلني أفكر بالموت باستمرار .. ويخيل الي أني بعد قليل سأسلم رأسي للاسفلت لكي تدهسه دواليب سيارة مسرعة ... وربما سأقول لحظة اسمع تحطم عظام جمجمتي : خذي دمي يا مدينتي قرنفلة قرمزية لصدرك المتعب .

ففحك الشاب البدين وقال :

ـ انت تتكلم كالمجنون .

ـ كلنا مجانين .. ديستوفسكي مجنون . سارتر ابله لا يحب الشمس . رامبو ولد غير مهذب . تشايكوفسكي ضفدع حزين . لوركا بلبل اسود . كافكا صرصار من حجر . جيمس ماسون طبل .

ـ كلنا طبول ممزقة فقدت حتى الصوت الاجوف .. ما الفائدة من الوقوف تحت الشمس .. لنسر .

وابتسمت بنت صغيرة للشابين ، وكانت تقف خلف قضبان نافذة مطلة على الطريق ، وتردد بايقاع غنائي ساذج مرح:

ـ ايمتى بدك تيجي يا ماما .. تأخرتي يا ماما .

ويتعالى من مئذنة مسجد عتيق صوت عذب

ـ الله اكبر .. الله اكبر

فيقول الشاب النحيل لزميله :

ـ هلم نصلي ..

ـ لماذا نصلي ؟ .. قد يكون الله نفسه يكرهنا .

ويغمغم رجل كهل يجتاز الشارع بخطى بطيئة :

ـ ما الفائدة من ذهب العالم بعد موتي ؟

ويتجرأ شاب يشاهد فيلما فيلمس باضطراب ذراع الفتاة الجالسة على المقعد المجاور .

ويتثاءب عامل متعب الوجه ، ويقول لنفسه وهو يمضغ لقمة كبيرة :

كل يوم تتحطم جبهتي لاجلك يا رغيف ، يا عاري الكبير .

ويتكوم على ارض زقاق ضيق شاب ذو شعر اشقر تدلت خصلاته بوداعة على جبينه الشاحب ، ويضغط الشاب براحتيه على الدم المنبثق من جرحين عميقين متقاربين في الصدر .

اوه ساموت .. لماذا تحرشت باخته ؟

والتفت حوله بسرعة دائرة من الاجساد المتدافعة والوجوه والافواه والعيون المفتوحة الى اقصاها . من ضربه ؟

لا نعرف

انا شاهدت رجلا طويلا يركض هاربا

دمه ينزف بغزارة

اطلبوا الشرطة وسيارة الاسعاف

وتقف امرأة مكتنزة الجسد وتحملق بذعر في الشاب الاشقر الذي يئن انينا موجعا وهو يتلوى على وجه الارض .

وينتهز فتى في مقتبل العمر الاضطراب السائد ، فيقف خلف المرأة ويلصق جسمه بلحمها ، فتظل المرأة متجمدة في مكانها لحظات قبل ان تبتعد عنه بحركة مفاجئة وتسير بخطى متعجلة ، فقد تذكرت مهنتها، فهناك طفل ضئيل يرقد في عتمة بطن امه .. ينتظر يديها ، فقد حان الوقت لكي تبصر عيناه شمس العالم ، ويغدو مخلوقا له اسم واب واخوة ومنزل وحي ومدينة وسرير صغير سيكبر سنة فسنة .

ويصيح جرسون بصوت يتصاعد خاملا عبر ضجيج المقهى الكبير :

ـ واحد قهوة

هات يا جرسون كأس ماء بارد . احجارك السوداء .. الق النرد.. سأنتصر . قلت لها : ماذا ستخسرين ان اعطيتني قبلة ؟ فأجابت بسذاجة: ماذا ستخسر اذا لم أعطك قبلة ؟ تعطلت السيارة .. ما زال الحمار سيدا . فليسقط ابي .. فلتعش امرأة جارنا . تفو ... كلنا سنموت.

ويدلف الى داخل المقهى رجل واجم الوجه ، ويجلس وراء احدى الطاولات ، وينفث دخان سيجارته وهو يقول لنفسه : لا فائدة من المقاومة ... سأنتحر ..حبيبتي تركتني وتحولت الى مومس صغيرة ... أنا حزين ... كانت تحب الاطفال الذين يبتسمون ببراءة ولكنها تركتني وتحولت الى مومس .. ما اجملها .. شعرها تهواه وسادتي.. وفمها ـ حديقة الكرز الناضجة ـ يرمي على الدوام في دمي صنيعا عتيق الشمس .. عيناها حمامتان وديعتان تحطمت اجنحتها لحظة استقلت حبيبتي على ظهرها فوق بلاط باحة منزلي تحت اغصان شجرة الليمون ... ولقد همست انذاك بصوت متهدج :

ـ انا خائفة

فقلت لها بحرارة : لا تعذبيني .. سأبكي كطفل شنقت امه امام عينيه.

فابتسمت حبيبتي بغبطة ثملة كأن شرايينها امتلأت خمرا بينما كانت يداي تنسيان بؤسها القديم وتغرقان في عالم اللحم الذي اصبح فيما بعد ملكا لرجال كثيرين . ايها الرجل الكئيب .. هل ضحكت مرة ؟

وجهي خشب مهترىء بلا سماء . هل يضحك الميت ؟.. مدينتي صليبها مقهى وشارع

ما امنيتك ايها الرجل الكئيب الاكثر حياة من ارض بكر .

أن انام مئة سنة

دمشق — زكريا تامر

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) — للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) — للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣